قادة الاصلاح فى القرن الثالث عشر :

الشيخ شـــامل

زعيم القوقاز وشيخ المجاهدين

١٢١٢ — ١٢٨٧ هـ : ١٧٩٧ — ١٨٧١ م

للأستاذ برهان الدين الداغستانى

شامل تحت قيادة حمزة بك :

وبعد أن استشهد الغازى محمد الكمراوى فى معركة يوم ٢ جمادى الآخرة سنة ١٢٤٨هـ اجتمع العلماء والأعيان ، وأصحاب الشأن فى ولاية «آوار» وانتخبوا حمزة بك خلفاً للغازى محمد الكمراوى وقائداً لحركة الاصلاح الدينية ، وحاملاً لعلم الثورة الوطنية ، وسلك حمزة بك طريق سلفه من أخذ الناس باللين والهوادة ، ودعوتهم بالحسنى إلى اتباع أحكام الدين ، ورعاية آدابه ، فأخذ يطوف القرى والدساكر مرشداً ناصحاً ، يدعو إلى دين الله والعمل به ، ولكنه أيقن — كما أيقن سلفه من قبل — أن الدعوة التى لا نظاهرها القوة وتسندها ، حقيقة بالفشل ، فبدأ يجمع المتطوعين ، وينظم صفوفهم ، ويوجههم إلى الماندين الذين كانوا يحولون بين الدعوة الاصلاحية وذيوعها ، وهنا أيضاً نجد شاملا يشد أزر حمزة بك ويعضده ، ويلازمه فى جميع حملاته التأديبية ، ومعاركه الحربية التى خاضها ، فإنه كما كان القائد المحنك ، والمريد المطيع لدى الغازى محمد الكمراوى ظل كذلك مع حمزة بك أيضاً حتى قتل هذا غيلة بينما كان ذاهباً لأداء فريضة الجمعة فى قرية « خنزاخ » فى أواخر سنة ١٢٥٠ هـ (١٨٣٤ م) .

شامل فى قيادة الحركة الدينية الوطنية :

بعد اغتيال حمزة بك فى أواخر ســـنة ١٢٥٠ هـ اتجهت الأنظار إلى شامل ليقوم بقيادة الحركة التى بدأت من نحو خمس سنوات بقيادة الغازى محمد الكمراوى ، ولكن شاملا لم يكن بالرجل الطامع فى قيادة أو رياسة . وحسبه أن يقوم بواجبه كيفما اتفق ، بل كان بوده أن يظل بعيداً عن مشاغل القيادة ومشاكل الرياسة ، وما يتصل بها من مطامع ومتاعب ، ولذلك ثار وغضب لما فوجئ فى أمر اسناد الرياسة إليه ، ولكن إصرار العلماء والأعيان وأصحاب الشأن فى منطقة « آوار » مهد الحركة الثورية وإجماعهم على ضرورة قيامه بقيادة هذه الحركة — جعل شاملا يستجيب لصوت الواجب ، ورضى أن يتولى الامامة — كما كانوا يسمونها — بعد سلفيه الغازى محمد وحمزة بك .

إن تولى شامل قيادة الثورة الوطنية الدينية فى الداغستان كان نقطة التحول فى هذه الحركة ، فقد تبدل فيها كل شىء وتغير ، وانتشرت روح الحركة والنشاط فى كل اتجاه ، وظهرت نواحى العظمة والعبقرية فى هذا القائد الجديد سريعاً ، فدبت الحركة وظهر النشاط فى الثورة والثوار ، واشتعلت نار الحماسة فى صدور أولئك الجبليين من أهل القرى والأكواخ ، وتحولت الثورة التى سارت خمسة أعوام فى بطء وهوادة إلى حرب منظمة ، وقيادة محكمة وجنود مدربين ، وأنظمة مالية وقضائية كأحسن ماتكون الأنظمة المالية والقضائية فى البلاد ، وأنشأ الإدارة المدنية فى كل مدينة أو قرية وقعت تحت سلطانه .

كان كل شىء قبل تولى شامل الرياسة يسير على الفطرة والطبيعة الهادئة البدائية ، لاأثر للنظام والإحكام فيه ، كان واجباً على المتطوع أن يكفى نفسه ويموتها بما هى فى حاجة إليه من غذاء وكساء وسلاح ، فوق ما يصاب به فى نفسه وماله ، وما يلحقه من جراء اشتراكه فى الثورة من متاعب وخسائر .

ولم يكن لهؤلاء المتطوعين نظام يسيرون عليه ، وتدريب يعدهم للأعمال الحربية ، فكان كل واحد منهم يقوم بما يستطيعه تحت مسئوليته وعلى حسابه ، وعلى الوجه الذى يتراءى له

وكما لم يكن هناك — قبل رياسة شامل — نظام للمتطوعين وتدريبهم فإنه لم يكن عندهم ما يسمى بالإدارة المالية المنظمة لحركة الثورة ، فكل شىء كان يسير — كما قدمت — حسب الظروف ، وعلى أساليب فطرية أولية ، لا أثر فيها للدقة ، ولا للنظام والأحكام .

فلما تولى شامل قيادة الثورة أنشأ — أول ما أنشأ —

بيت المال على حسب نصوص الشريعة الإسلامية ، وعين لهذا البيت الجباة والأمناء والعاملين ، وجعل للمتطوع حقا معلوماً فى الغنائم ، فكان يخمس كل ما يصل إلى يده من أموال الأعداء ، فيضم خمسه إلى بيت المال ، ثم يقسم الأخماس الأربعة الباقية بين المجاهدين المحاربين ، وأحيا بذلك سنة الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين فى قسمة الغنائم بين بيت المال والمجاهدين تطبيقاً لكتاب الله الكريم وعملا بما جاء به « واعلموا أن ما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير » (٤١ — ٨) .

فكون بذلك أساس النظام الاقتصادى ، وأمن الناحية المادية فى الثورة ، كما أغنى المجاهدين المتطوعين ، وسد حاجاتهم بما ينالونه من الغنائم ، ولم يكتف بذلك بل وجه نظره إلى نظام الجيوش وتدريب المتطوعين على نظم القتال والحروب ، كما عنى العناية البالغة بأمر أسلحة هؤلاء المتطوعين ، وعمل على إبلاغها إلى الحال التى تصلح للقتال بها مع جيوش الروسيين ذات العدد والعدد .

ومع أن هم شامل كله أو جله كان منصرفاً إلى الناحية الحربية وإعداد المحاربين ، وتهيئة كل الأسباب التى تمكنهم من القيام بواجبهم الوطنى على الوجه الأكمل ، فإنه مع ذلك لم يكن ليهمل النواحى المدنية والعمرانية ، فقد كان معنياً جداً بتوطيد نظام القضاء الشرعى فى تلك البلاد ، فكان يعين فى كل قرية يستولى عليها قاضياً شرعياً يفصل بين أهلها فيما يعرض لهم من أحكام دينهم ، ويقيم حدود الإسلام ، وينفذ أحكامه فيهم .

وليس هذا فقط ، فقد كان يوجه إلى الأقاليم والمناطق التى تخضع له « نواباً » عنه يقومون بالإدارة المدنية فى تلك الجهات ويشرفون على جميع شئونها . وكانت مهمة هؤلاء النواب فى أقاليمهم شبيهة بمهمة المحافظين والمديرين ، فكانوا مسئولين عن جباية أموال بيت المال ، وتنظيم حركة المتطوعين ، والمحافظة على السلام والأمن العام ، وحماية السلطة القضائية ، وتنفيذ أحكام القضاة ، وعلى العموم فقد كان هؤلاء « النواب » يقومون فى أقاليمهم بمهمة الحكام لهم ما للحكام من إشراف على مصالح الإقليم ورعاية حقوق الناس وصون أموالهم ونفوسهم ، وتنفيذ الأحكام التى يصدرها القضاة الشرعيون .

وإذا نحن تركنا الناحية المدنية من إنشاء بيت المال وتنظيم الإدارة وما إلى ذلك ، ووجهنا نظرنا إلى الناحية الحربية وأثر شامل فيها . وجدنا الفرق كبيراً والبون شاسعاً بين العهد الذى سبق شاملا والعهد الذى نشأ بعد تولى شامل للقيادة . فالثورة فى عهد الغازى محمد الكمراوى وحمزة بك كانت أشبه ما تكون بتلك الحركات السلبية التى تظهر فى كل بلد على أثر احتلال جديد من فاتح أجنبى ، تظهر هنا مرة ، وهناك مرة أخرى ، وتظهر فى آن لتختفى فى أحيان ولكن الحال فى عهد شامل من سنة ١٢٥٠ — ١٢٧٦ هـ (١٨٣٤ — ١٨٥٩ م) تغيرت تغيراً كبيراً ، فقد أصبحت الثورة حركة عامة شاملة ، وأصبح لها قيادة رسمية ومقر يصرف الأمور ، ويوجه الحركات ، ويتلقى الأنباء ، ومعتقلات لإيواء الأسرى ، وسجون لحبس الخارجين على أحكام الشريعة ، أو من صدرت ضدهم أحكام قضائية .

وأنشأ الشيخ شامل حكومة وطنية فى الداغستان . كانت فى كثير من الأوقات — مدى ربع قرن — تبسط سلطانها على أغلب البلاد الداغستانية ، وتنفذ فيها أحكام الشريعة الإسلامية .

وإن مما يبعث على العجب والإعجاب معاً أن يستطيع الشيخ شامل الصمود أمام قوات القيصرية الروسية خمسة وعشرين عاماً ونيفاً يناضل فى سبيل دينه ووطنه من غير أن يكون له سند يسنده ، أو معين يعينه غير إيمانه بالله ، وقوة عزيمته ، وصبره ومصابرته على المكاره والشدائد فى سبيل الله . وإذا كان فى هذا الصبر وذلك الصمود أمام قوات تلك الأمبراطورية العظيمة مدى ربع قرن ما يثير الإعجاب ويبعث على العجب ، فإن ما سجله التاريخ لهذا المجاهد البطل من انتصارات باهرة على كبار القواد الروسيين فى معارك مشهورة فاصلة — نعم إن تلك الانتصارات العجيبة تعيد إلى الذهن ذكرى فتوحات الغزاة المسلمين فى عصر ظهور الإسلام وانتشاره والصدر الأول من حياة المسلمين .

على أنه — رحمه الله وأحسن إليه — لما اضطر إلى التسليم آخر الأمر لم يرض أن يسلم نفسه إلا على شرط أن يسلم هو ومن معه

من قواده ومرافقيه إلى خليفة الإسلام والمسلمين في القسطنطينية.

ولا يتسع هذا المقال الوجيز الذي أكتبه بمناسبة ذكرى وفاته السادسة والسبعين لذكر كل ما ينبغي ذكره من أعمال هذا المجاهد العظيم، ولذلك سأقتصر على بعض الخطوط والظلال التي تصوره بصورة إجمالية، وتعطي القارىء فكرة عامة عنه، كما أذكر بعض الأعمال والحوادث الهامة التي وقعت في عهده ملتزماً في ذلك غاية الإيجاز:

١ — على أثر تولي شامل قيـــادة الثورة وقيامه ببعض الاصلاحات والتنظيمات أوعزت الحكومة الروسية إلى أحد صنائعها شمخال[1] غمزانش، وكلفته الاتصال بشامل بقصد استمالته إلى جانب الروسيين، وإغرائه وإطماعه في إمارة الجبل، فاتصل الشمخال بالشيخ شامل، وطلب منه أن يتوجه إلى مقر والي القوقاز في مدينة «تفليس» حتى يعينه هذا الوالي الروسي أميراً على بلاد الداغستان، إلا أن الشيخ شامل كان يعتبر نفسه أميراً وإماماً لبلاد الداغستان بمبايعة الداغستانيين له وتوليتهم إياه بعد اغتيال المرحوم حمزة بك سنة ١٢٥٠ هـ ولذلك لم يعر هذا العرض التفاتاً وضرب به عرض الحائط. وفي سنة ١٢٥٣ هـ (١٨٣٧ م) تكررت هذه المحاولة لاستمالة الشيخ شامل، وإنهاء حال الثورة في بلاد الداغستان، فقد اتصل القائد الروسي الجنرال «كلك» بالشيخ شامل وعرض عليه الذهاب إلى «تفليس» لمقابلة والي القوقاز، وأكد له أن الوالي سيعينه أميراً على جميع المسلمين في الداغستان، ورفض الشيخ شامل هذا العرض أيضاً لأنه كان يعد نفسه أميراً منتخباً من الأهلين بكامل حرياتهم، فلم يرض لنفسه أن يتلقى الإمارة من يد عدوه ومستعمر بلاده، وعقد العزم على مواصلة القتال حتى يقضي الله أمره، ثم تكررت هذه المحاولة سنة ١٢٥٥ هـ (١٨٣٩ م) من جانب الروسيين ولكنها فشلت أيضاً.

٢ — في أوائل سنة ١٢٥٨ هـ انتصر الشيخ شامل على القائد الروسي الجنرال «كرف» انتصاراً باهراً. في معركة فاصلة حاسمة واضطر هذا القائد الروسي إلى الانسحاب العام، ولجأ إلى قلعة «شورا» الشهيرة. وكان لهذا النصر وقعه الحسن بين إخوان شامل ومريديه، فاقترحوا عليه أن يبعث وفداً من قبله لمقابلة خليفة المسلمين السلطان عبد المجيد خان في القسطنطينية، وبعد إلحاح شديد نزل شامل على إرادة أعوانه، وألف وفداً من ثلاثة أشخاص اختارهم لهذه السفارة بينه وبين الخليفة، وحملهم عريضة كتبها باسمه واسم اخوانه المجاهدين الداغستانيين إلى مقام الخلافة العظمى. ولسنا ندري مضمون هذه العريضة، والغاية المرجوة منها، ولكنها على كل حال لا بد أن تكون عرضاً لأحوال المسلمين في الداغستان، وربما كانت متضمنة طلب العون والمساعدة المادية أو الأدبية على الأقل من خليفة المسلمين.

وسافر هذا الوفد إلى بلاد الجركس في طريقه إلى القسطنطينية ثم جاوزها إلى بلاد «أبازه» على ساحل البحر الأسود ليركبوا من هناك أحد المراكب البحرية إلى عاصمة الخلافة. إلا أن أخبار هذا الوفد كانت قد سبقته، فوجد العيون والأرصاد في كل مكان فلم يستطع أعضاؤه ركوب البحر لأن عيون الروسيين كانت ساهرة، وأخيراً استطاع أحد الأعضاء «الشيخ الجركوي» أن يتسلل إلى أحد المراكب بدعوى أنه من الحجاج القاصدين إلى الديار الحجازية وحمل بين طيات ثيابه عريضة الشيخ شامل، وأوصلها إلى رجال ديوان الخليفة غير أنه لقي مطلا وإهمالا غريبا، ووعوداً كاذبة. وقضى نحبه بعد مرض يسير قبل أن ينال رد الخليفة على عريضة قائده وإمامه الشيخ شامل. وبذلك أسدل الستار على هذه الرواية

(يتبع) برهان الدين الداغستاني

(١) لقب يطلق على بعض حكام الأقاليم والرؤساء هناك.

يظهر قريباً جداً:

أنـــات الغريب

مجموعة من روائع القصص

بقلم الأستاذ حبيب الزحلاوي